القطيعة وقابلية التكذيب

(مقاربة في ابستيمولجيا ' باشلار ' وَ ' بوبر ')

د. خيرالدين دعيش
جامعة سطيف – 2 –

I– القطيعة الابستيمولوجية عند " باشلار " :

عرف " غاستون باشلار Gaston Bachelard " بمجموعة من الألقاب والأوصاف العلمية ، التي اقترنت بإنتاجه الفكري في مجال فلسفة العلوم ؛ فهو فيلسوف العقلانية ، وفيلسوف الثورية ، غير أن اللقب الذي اشتهر به كان " فيلسوف القطيعة " ، وذلك لما كان من أثر لمفهومه " القطيعة الابستيمولوجية Epistemological Break " في وضع أسس مناهج العلم الحديث ؛ متجاوزا من خلاله وثائرا على الأطروحات الكلاسيكية في فلسفة العلوم ، وَ : " مصرا على رفض فكرة الاتّصال في العلم ، فمراحل المعرفة العلمية تتصف أساسا بالانفصال في صورتها وفي مضمونها " [i] ، لذا فإنّ رفضه لفكرة الاتّصال في العلم يستند إلى مسألتين :

- **الأولى** : هو نظرته الوصفية لمراحل العلم ، والتي رأى أنها تتّصف أساسا بالانفصال ، وهذا هو محور ظهور مفهوم القطيعة لديه .
- **الثانية** : وهو نظرته النقدية للاتّصالية في العلم ، وزعمه بعدم نجاعتها في تحقيق التقدّم العلمي ، الذي يقوم على الصراع القائم بين القديم والجديد ، وليس على مفهوم تراكمية المعرفة الجديدة على القديمة .

وقد كان همّ " باشلار " الفكري ، كحال مفكري عصره وفلاسفته ؛ متمثّلا في كيفية وضع أسس لتجسيد التقدم العلمي ، وقد أعلنها صراحة أنّه لا تقدّم في العلم ولا تطوّر إلا من خلال حدوث قطائع تؤدي بالمعرفة إلى إنتاج جديد ، يكون عبارة عن خطوة نوعية في مسار العلم . وهكذا فإنّ العلم يتقدّم في ديالكتيك (جدل) مفتوح يعبّر عن عدم اتّصال المعرفة ، وعن الانتقال من القضية إلى سلبها ، هذا فيما يخصّ القطيعة داخل المعرفة العلمية في حدّ ذاتها – مثلما أوضحت " يمنى طريف الخولي " في قراءاتها لفكر " باشلار " – غير أنّ " القطيعة الابستيمولوجية " لا تقتصر فقط على الفصل بين ما هو قديم وجديد في المعرفة العلمية ؛ لذلك يؤكّد " باشلار " على مستويين من القطائع :

- القطيعة على المستوى الشمولي للمعرفة (خارج النسق العلمي) وهي القطيعة بين المعرفة العامة وبين المعرفة العلمية .
- القطيعة في خضم المعرفة العلمية (داخل النسق العلمي) ، وهي القطيعة بين النظريات وبين المعارف العلمية القديمة والجديدة .

1- مفهوم العقبة الابستيمولوجية :

إنّ فهم القطيعة الابستيمولوجية فهما معرفيا يستوجب التطرّق إلى " العقبة الابستيمولوجية Epistemological Obstacle " [ii(*)] في فكر " باشلار " ، باعتباره مفهوما جوهريا كان وراء ظهور مفهوم القطيعة لديه ، حيث يرى " باشلار " أنّ : " عند البحث عن الشروط النفسانية لتقدم العلم سرعان ما نتوصل إلى هذا الاقتناع بأنه ينبغي طرح مسألة المعرفة العلمية بعبارات العقبات ، وأنّ المطلوب ليس اعتبار عقبات خارجية مثل تركيب الظواهر وزوالها ولا إدانة ضعف الحواس والعقل البشري : **ففي صميم فعل المعرفة بالذات تظهر التباطؤات والاضطرابات** " [iii] ، إنّ تجاوز العقبات الخارجية (خارج النسق الابستيمولوجي) لا تمكّننا حسبه من إحداث تقدم علمي ؛ ولا يكون هذا التقدّم إلا من خلال تجاوز الفكر للعقبات المتواجدة في صميم المعرفة العلمية في حدّ ذاتها : " فالبحث في تطوّر المعرفة العلمية وفي شروط تكوينها لا يجب أن يبدأ إلا من حيث تحديد العقبات الكامنة في صميم هذه المعرفة وليس خارجها " [iv] ؛ ويحدّد " باشلار " في كتابه " تكوين العقل العلمي " مجموعة من العوائق الابستيمولوجية التي يرى بأنّها تحول والتقدّم العلمي ؛ هذا ويعتبر " باشلار " أنّ عقبة (الرأي العام) هي أوّل عقبة يجب تخطّيها ؛ فالرأي العام حسبه يفكّر سيئا ، بل هو لا يفكر وإنّما هو يترجم فقط حاجاته إلى معارف ؛ وإنّ ترجمة هذه الحاجات إلى معارف تجعل من (الرأي العام) ذلك الرأس المغلق والنتاج المدرسي الذي يشير إلى الأشياء بجدواها ويحضر على نفسه بمعرفتها [v] ، لذلك فالعلم يتعارض تعارضا مطلقا مع الرأي العام ، هذا ويحاول " باشلار " في كتابه هذا دراسة مجموعة من العقبات الابستيمولوجية البالغة الخصوصية والمصاعب كما سمّاها هو ، ومن بينها :

- عقبة الاختبار الأول : وتسمّى أيضا بعقبة الملاحظة الأولى ؛ وهي عقبة تتعلّق بالمعرفة الأولى التي تمدّنا بها الحواس في علاقتها مع الطبيعة دون أيّ تفكير نقدي ، فهذه المعرفة لا يمكن أن تعتبر سندا علميا موثوقا ، مادامت لم تخضع لديالكتيك عقلي وبناء يكون على أساس ترميم ذاتي .

- عقبة المعرفة العامة : تتعلّق هذه العقبة بالحقائق الكبرى الموضوعة في أسس كل علم ، وبفعل مبدأ التعميم تفقد هذه الحقائق دقتها نقديا ، ويضرب " باشلار " مثالا عن ذلك حول الحقيقة الفيزيائية المحددة لـ " ثقل الأجسام "

من خلال القانون العام لسقوط الأجسام الثقيلة ، غير أنّ تجربة سقوط الأجسام في الفراغ خلصت إلى قانون مفاده " في الفراغ تسقط جميع الأجسام بنفس السرعة " ولا أهمية لمفهوم الثقل هنا ، الذي اعتبر كمحدّد للقانون العام لسقوط الأجسام الثقيلة والذي كان كحقيقة كبرى في الفيزياء [vi] .

هذا ويتطرّق " باشلار " إلى توضيح عقبات أخرى (كالعقبة اللفظية والعقبة الجوهرانية وعقبة المعرفة الواحدية التجريبية...) ، حيث يرى وجوب تجاوزها وضرورة تخطّيها من خلال مبدأ " قطيعته الابستيمولوجية " .